التصوف والتجربة الدينية

الدكتور محمد شقير

إن السؤال المطروح هنا: هل يوجد في الإسلام تجربة دينية بمعنى أن الشأن الديني في الإسلام يستبطن الفعل على المستوى النفسي والقلبي فيما يسمى بالمجاهدة والرياضة المعنوية والروحية؟ والجواب هو بالإثبات، حيث أن الإسلام لم يتعامل فقط مع الظاهر أو مع الجسد بل هو يتعامل أيضاً مع الباطن والروح والقلب، بل قد يدعي أن أصالة الشخصية الإنسانية هي في النفس وما الجسد إلا آلة للنفس تستخدم من أجل تحقيق الكمال الذي تصبو إليه[1].

إن الكثير من المفاهيم التي يختزنها النص الديني الإسلامي من قبيل التزكية[2] والتخلق[3] والتقوى[4] والخوف من الله تعالى وغيرها والتي هي مفاهيم ذات بعد نفسي بالدرجة الأولى وليس فعل الجوارح هنا ألا تماهياً مع ما استوطن النفس البرية من حالات وكمالات هي التي توجه فعل البدن.

إن فلسفة التجربة الإيمانية هي أنها فعل تكامل إلى الله تعالى لكن موضوع هذا التكامل هو النفس بما هي مفردة الوجودية تعبر عن الشخصية الإنسانية والتي تملك أصالتها، حيث أن حقيقة موضوعية النفس هنا العمل على تنميتها تنمية نورانية تنحو بها في سبيل الكمال والقرب من الله تعالى، كما أن الفاعل في ذلك التكامل هو أيضاً النفس بما هي أيضاً العنصر المختار والذي هو موطن الإرادة، والتي تتأثر – اي تلك الإرادة – بالمبادئ التصديقية التي تصل النفس من خلال فعل العقل، بل إن جميع القضايا التصديقية التي يقر بها العقل لها دخالتها بشكل أو آخر في تولد الإرادة، وخصوصاً تلك القضايا التي وصلت في مرتبتها المعرفية والتصديقية إلى مراتب متقدمة – بناء على القول إن مقولة التصديق هي مقولة تشكيكية – أن ميزة تكامل الإنسان هو أنه تكامل اختياري تلعب فيه الإرادة الحرة دوراً مفصلياً بين خطي التكامل والتسافل، وهو ما يرتبط

---

[1]- انظر الطباطبائي محمد حسين مقالات تأسيسه في الفكر الإسلامي توفيق خالد، ط1، مؤسسة أم القرى، 1415 هـ، ص 60.

[2]- "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها وقد أفلح من زكاها" [سورة الشمس: الآيات 6 – 7 – 8].

[3]- يقول الرسول " لما خلق الله الإيمان فال اللهم قوني فقواه بحسن الخلق والسماء ولما خلق الله الكف قال الله قوني فقواه بالخل وسوء الخلق" محمد الشيرازي محمد ميزان الحكمة بج بيروت مؤسسة دار الحديث.

[4]- "يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم" [سورة الحج: الآية 1]

بالتالي بوظيفة العقل ونتيجة الصراع القائم بينه وبين ميول الشهوة وهو ما يقودنا للحديث عن التجربة الإيمانية والعقل.

العلاقة بين العقل والإيمان

نستطيع القول أن العقل أساس في التجربة الإيمانية من خلال كونه عاملاً أساسياً في صناعة مكّن الإرادة، باعتبار أن المنظومة الإيمانية – في جانبها المعرفي – تقوم على جملة من الأصول التي لا سبيل إليها إلا من خلال فعل العقل وآلياته المعرفية ومن هنا فإ، التجربة الإيمانية في أساسها المعرفي ترتكز على العقل، فلو لم يكن من العقل تصديق بدوائية التجربة الإيمانية ولو لم يكن من العقل تصديق بالأسس المعرفية والفلسفية والكلامية التي تقوم عليها تلك التجربة لما بدار الإنسان إلى الأخذ بزمام تلك التجربة وبأسبابها[1] .

على هذا الأساس يمكن لنا أن نتحدث عن علاقة تكاملية بين الإيمان والعقل من هذه الناحية، باعتبار أن العقل يؤسس للفعل الإيماني والإيمان – بما هو فعل في النفس – يكمل المهمة التي بدأ بها العقل. لكن جانباً آخر قائم على مستوى العلاقة بين العقل والفعل الباطني (المجاهدة – الرياضة المعنوية) من ناحية أن كلاً منهما يوصل إلى الحقيقة وأن الوصول إليها كما هو متاح من خلال الفكر* فهو أيضاً متاح من خلال الكشف وفعل البصيرة، وبالتالي فإن كلاً من العقل والكشف يصبح برأسه طريقاً للوصول إلى الحقيقة، أي أن الوصول إلى الحقيقة ليس محصوراً بطريق دون آخر وإن كانت هذه الدعوى تخالف دعوى الكثير من العرفاء والمتصوفة الذين يذهبون إلى أن الوصول إلى الحقيقة محصور بالرياضة المعنوية[2].

وهنا لا بد من القول إن الرياضة المعنوية سواء في نفسها أو في مستوى منتوجها الكشفي لا تستطيع أن تنأى بنفسها عن العقل سواء في انطلاقها كتجربة إيمانية على مستوى مبرراتها الفلسفية والكلامية – وهو ما تحدثنا عنه سالفاً – أو في صيرورتها أو في منتوجها على مستوى عدم مخالفته لبديهات العقل النظري أو في إيصال ذلك المنتوج الكشفي والتعبير عنه وهو ما يحتاج أيضاً إلى لغة العقل ومنطقه أيضاً.

---

[1]- شقير محمد دراسات في الفكر الديني، بيروت دار الكتاب الجديد 1419 ص 55.

* قد يقال هنا ان فعل العقل والتفكر يؤثر هنا بما يترك من أثر في النفس.

[2]- يزبي يحي، عرفان نظري، سوم، قم، انتشارات دفتر تبليغات إسلامي، 1377 هـ ش، ص 36 – 37.

أما في قضية العلاقة ما بين الكشف وبديهيات العقل فلا بد من القول إن منتوج الكشف وجميع ما يتولد من التجربة الإيمانية والرياضة المعنوية يجب ألا يخالف بديهيات العقل، وهذا الشرط هو شرط بديهي يستفاد من بديهية المقدمات التي تكني يتكيء عليها، بل ليس إلا تطبيقاً لها على مستوى العلاقة بين الكشف وبديهيات العقل فهنا لا بد من رفض تلك القضايا الكشفية، التي تخالف العقل، إن من الأهمية بمكان أن نفرق بين ما لا يفهمه العقل وتقف حدود إدراك عنده ويدرك العقل سر عدم إدراكه له، وبين ما يرفضه العقل لأن حدود إدراكه تشمله ويدرك العقل سر رفضه له، وبالتالي فرق بين غير المفهوم وبين المرفوض، الأول متعال على العقل والعقل هو الذي يحكم بتعاليه عنه ويرضخ لهذا التعالي بينما الثاني داخل في الجغرافية المعرفية للعقل، لكن حكم العقل فيه هو بعدم القبول لأنه يخالف بديهياته.

ولذا لا توجد في المفاهيمية الإسلامية أسرار يحكم العقل برفضها، ومع ذلك تكون الدعوى القبول بها لأنها من نتاجات الإيمان، أو أنها فعل إيمان وليست فعل عقل، فالجواب أن العقل عندما يرفض قضية ما فإنها تخرج ليس فقط من ساحة العقل بل من ساحة النفس أيضاً بما هي موطن للإيمان، لأن الإيمان لا يمكن أن يذعن بما هو مرفوض من العقل، كيف وهو الحجة الباطنة في قبال الحجة الظاهرة.

أيضاً من المناسب أن ندخل البحث من ناحية العلاقة بين التجربة الإيمانية والحجة الظاهرة (الشريعة)[1]، فينبغي القول أنه إذا كانت أسس التجربة الإيمانية قائمة على أساس العقل فإن جميع تعاليم تلك التجربة وأحكامها وبرامجها العملية يجب أن تؤخذ من الشرع وظاهر الشريعة، حيث أن جميع تلك التعاليم التي جاءت بها الشريعة فيما يرتبط بالسنن أو الواجبات والمستحبات وما يتعلق منها بالتزكية والتخلق والتقرب ... يمكن أن تشكل منبعاً أساسياً لجميع المقررات التي تعنى بالسير والسلوك والمجاهدة المعنوية.

يضاف إلى ما تقدم أن النتائج التي تفضي إليها التجربة الإيمانية يجب أن تكون منسجمة مع الشرع وألا تكون مخالفة لظاهر الشريعة وعدم المخالفة هنا أمر متفق عليه من جهة أن التجربة الإيمانية تؤخذ من الشرع فكيف تخالفه في منتوجها كما أن الشريعة ترى في تلك التجربة مفردة من مفرداتها فلن تنتظر منها ما ينفيها.

[1]- أنظر: مطهر مرتضى، العرفان تر نور الدين عباس، ط 2 بيروت – دار الرسول الأكرم، ص 28 – 29.

والنتيجة مما تقدم أن علاقة ما تكاملية قائمة ما بين التجربة الإيمانية والعقل والشرع. هذه العلاقة هي التي تسهم في ترشيد التجربة الإيمانية وتنميتها، بل وإيجاد معيارية ما تسهم في ضبط إيقاع تلك التجربة وتحصينها من التحرك بشكل منفلت ينطلق من ذاتية محضة وشخصانية غير مضبوطة وبالتالي فإن الدعوة هنا تختصر في إبعاد التجربة الإيمانية عن الفردية واللاعقلانية لصالح جمعنة تلك التجربة ومنهجتها وعلمنتها.

أما النتائج التي تستفاد من مجمل البحث فهي:

1. تهدف التجربة الإيمانية إلى التكامل إلى الله تعالى والتقرب منه.
2. هي تجربة لصيقة الصلة بالعقل وغير منفصلة عنه.
3. تنطلق من توجيهات الشرع وتعاليمه.